

الفصل الثالث عشر

قنبلة ذرية على مصر

□ وزير خارجية إسرائيل: إننا نعمل بتركيز شديد لإسقاط عبد الناصر

□ إنذار أمريكي للقاهرة: وقف حرب الاستنزاف في الحال أو يتلقى الاقتصاد المصري ضربات جوية قاضية

□ من رئيس الولايات المتحدة إلى رئيس الاتحاد السوفيتي: سنستمر في تقديم الأسلحة إلى إسرائيل.. ومصر هي المسئولة

□ من رئيس الاتحاد السوفيتي إلى رئيس الولايات المتحدة: سنضطر إلى مد الدول العربية بما يمكنها من الرد على المعتدى المتغطرس

□ فرنسا تختلف مع أمريكا وتدين الغارات الإسرائيلية ضد مصر



بمجرد عودة عبد الناصر إلى القاهرة من موسكو بعد ظهر ٢٥ يناير دُعى مجلس الوزراء إلى جلسة طارئة في اليوم التالي. حيث تم اعتماد ١١٠ ملايين جنيه من بند الطوارئ لبدء فوراً بناء التجهيزات الجديدة، بمتوسط إنفاق ثلاثة ملايين جنيه يومياً، فيما أصبح سباقاً مع الزمن من ناحية، وسباقاً لضمان السرية من ناحية أخرى.

ولم يكن الأمر يتعلق بمجرد مواقع وتجهيزات جديدة، وإنما هذا كله يجرى وسط غارات جوية إسرائيلية مركزة، واستطلاع جوى لا يتوقف. وآلاف من المهندسين والجنود والعمال يتم حشدهم، ودفعات جديدة منهم تحل محل من يستشهدون، ومئات أخرى من الاحتياجات، لدرجة أن «إنشاء النطاقات الوقتية بين القاهرة وغرب القناة احتاج إلى ملايين من شكاثر الرمل اضطرت مصر إلى استيرادها من الهند وباكستان والصومال في وقت واحد وبسرعة» على حد تعبير الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية.

وبالرغم من اتخاذ وسيلة الأمان فى الإنشاءات.. وزيادة طلعات المظلات الجوية من طائرات ميغ-٢١ إلا أن العدو اكتشف اقتراب النطاقات الدفاعية للصواريخ سام-٣ إلى منطقة غرب القناة فبدأ يركز على ضرب المواقع تحت الإنشاء التى تبنى بالأسمنت المسلح أو الحوائط مسبقة الصنع التى كانت تنقل من مصانع غرب القاهرة، وكانت قنبلة واحدة زنة ١٠٠٠ رطل تلقى على الموقع قبل تجفيفه فتبطل استخدام الموقع نهائياً ونضطر إلى اختيار موقع أخسر قريب ونبدأ فى إنشاء موقع جديد، وبدأ الصراع بين لواءات الصواريخ سام ٣ والمدفعية ٢٣ م... وطيران العدو فى معارك تحولت بعد ذلك إلى معارك صواريخ سام-٣.

وفيما بعد، حينما ستظهر النتائج عملياً فى ميدان القتال، فإن التقييم الإسرائيلى سيصبح هو أنه: «فى تلك النقطة جاءت نقطة تحول كبرى فى الشرق الأوسط من وجهة النظر التاريخية بزيارة ناصر السرية إلى موسكو، وما تلاها من وصول معدات وأطقم سوفيتية إلى مصر».

أما قبل أن تظهر تلك النتائج، فإن إسرائيل مستمرة فى غاراتها فى العمق المصرى بطائرات الفانتوم الأمريكية دون عقاب مصرى مؤثر، بينما المسئولون الإسرائيليون يعلنون صراحة أن هدفهم هو إسقاط نظام جمال عبد الناصر فى مصر.

وفى الثالث من يناير ١٩٧٠ أعلنت جولدا مائير أنها لا ترى فرصة للسلام ما دام عبد الناصر فى الحكم، وبالتالي فان إسقاط عبد الناصر والنظام كله الذى يمثله يجب أن يسبق أى حديث عن السلام.

وصرح أبا اييان بما يفيد أن «بعض الجهات الأمريكية- يقصد كيسنجر ووكالة المخابرات المركزية- تعاتبنا على موقفنا السلبي فى الوقت الحاضر وتقايسنا عن العمل الايجابى فى مصر، وقد طلبوا منا أخيرا أن نركز جهودنا فى الفترة المقبلة على ما يؤدى إلى إسقاط عبد الناصر شخصيا».

وكتبت جريدة «النيويورك تايمز» الأمريكية فى ١٨ يناير أن إسرائيل قررت إعطاء أولوية للحرب النفسية (ضد مصر) وأن الهدف من هذه الحرب النفسية مزدوج: أولا- إيصال الحرب إلى الشعب المصرى.. وثانيا- تقويض القيادة المصرية وخلق انقسامات داخلية مما يؤدى إلى نتائج ملائمة بالنسبة لإسرائيل.

وفى حديث دار بين أحد الصحفيين الغربيين وأبا اييان وزير الخارجية الإسرائيلى سأله الصحفى عن سبب تركيز إسرائيل وأمريكا على جمال عبد الناصر شخصيا؟.. فقال أبا اييان: «إننا نعمل بتركيز شديد لإسقاط عبد الناصر لأننا مقتنعون بأنه بعد سقوطه سيهدأ الموقف مع مصر وسيتغير لصالحنا».

وفى ٢٩ يناير ١٩٧٠ نشرت النيويورك تايمز الأمريكية تصريحاً جديداً لموشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى يقول فيه: «إن احد أهداف الغارات فى العمق ضد مصر هو مواجهة المصريين بحقيقة الحرب، إننا نقول للمصريين: الآن انظروا هنا، إن قادتكم لا يفعلون بكم أى خير». ونفس النغمة كررتها جولدا مائير رئيسة الوزراء فى تصريحها لجريدة «لوموند» الفرنسية يومى ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٠.

تحذير أمريكى لمصر وسوفياتى لواشنطن

وفى الثانى من فبراير وجهت الولايات المتحدة تحذيراً ضمنياً إلى مصر، ورد فى رسالة من الحكومة الأمريكية سلمها دونالد بيرجس القائم بأعمال رعاية المصالح الأمريكية فى القاهرة، حيث توجه الحكومة الأمريكية نصحتها إلى القاهرة بأن تعلن «فى الحال» قبولها بوقف إطلاق النار كما حدده قرار مجلس الأمن فى يونيو ١٩٦٧، وفى هذه الحالة يجب على مصر «ألا تربط قرار وقف إطلاق النار بالانسحاب الإسرائيلى»، أما إذا لم تقبل مصر

ذلك «فإن الغارات الإسرائيلية في العمق المصرى سوف تستمر، وربما بصورة أكبر مدى ويتزايد ليشمل أهدافا تضر بالاقتصاد المصرى بصورة أساسية».

ويومها تجاهلت القاهرة تماما هذا التحذير الأمريكى، وبالطبع لم تفكر لحظة واحدة فى الأخذ «بالنصيحة» الأمريكية بقبول وقف إطلاق النار بلا قيد أو شرط.

لقد كان لدى القاهرة تفسيرها الخاص لتلك الرعونة الأمريكية المفاجئة، فقبل يومين اثنين- أى فى ٢١ يناير ١٩٧٠- وجه رئيس الوزراء السوفيتى اليكسى كوسيجين رسالة غير معلنة إلى الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون اتسمت لهجتها بتحذير غير مألوف من السوفيات من «استمرار إسرائيل فى مغامراتها» بقصف أراضى مصر والدول العربية الأخرى، لأن هذا يعنى أن الاتحاد السوفيتى «سوف يكون مضطرا إلى العمل على أن يكون لدى الدول العربية الوسائل التى تمكنها من الرد على المعتدى المتغطرس».

وفى نفس الوقت بعث كوسيجين برسالتين مشابھتين إلى كل من الرئيس الفرنسى جورج بومبيدو ورئيس الوزراء البريطانى هارد ويلسون.

وفى تلك الرسائل غير المعلنة، والتى يحتوى هذا الكتاب على صور لها، كان السوفيات يبلغون الولايات المتحدة بأن ما تفعله إسرائيل قد وصل إلى النقطة التى ستجعلهم «مضطرين» إلى العمل، وبالطبع، سيحى رد نيكسون بلهجة مماثلة محبذا العودة إلى وقف إطلاق النار والحد من التسليح فى المنطقة وبأن الولايات المتحدة «لن تتردد فى إمداد الدول الصديقة بالأسلحة» إذا اختل التوازن العسكرى النسبى فى المنطقة.

فرنسا ترد وتدين الغارات

جاء الرد البريطانى على الرسالة السرية التى بعث بها اليكسى كوسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى متماشيا مع الموقف الأمريكى من تحميل مصر مسئولية حرب الاستنزاف الدائرة فى الشرق الأوسط، بينما جاء رد الرئيس الفرنسى مختلفا مع الموقف الأمريكى البريطانى، وجاءت رسالة الرئيس الفرنسى جورج بومبيدو الجوابية على النحو التالى:

«السيد الرئيس

«أشكرك على رسالتك التى تفضلت بإرسالها إلى فى ٢ فبراير وتتعلق بتفاقم الموقف فى

الشرق الأوسط.

«اننى أشارك القلق لتوسيع العمليات العسكرية فى هذه المنطقة من العالم. إن هذا يؤدى فقط

إلى إشعال المناخ وإعاقة السعى إلى حل سلمى كانت فرنسا تسعى إليه دائما فى نشاطها».

«إن انتهاكات الهدنة أيا كانت تتصادم مع القرارات التي تبناها مجلس الأمن كمرحلة أولى فى ٦ و٧ و٩ يونيو ١٩٦٧، والأمر لا يحتاج إلى القول بأن هذه القرارات تظل قائمة وتمثل أساسا لا غنى عنه بالنسبة لآى تسوية حقيقية».

«لقد عبرت حكومتى، كما عبرت حكومتكم، مرات عديدة عن أسفها من حقيقة أن تلك القرارات حظيت باهتمام قليل فى المنطقة ذاتها، لقد أشرنا بشكل متكرر إلى أن انتهاكات الهدنة قد تؤدى إلى تصعيد للعنف لا يمكن التحكم فيه، وكذلك إلى تهديد السلام، وفى كل مناسبة أكدنا على الحاجة الماسة للحل السياسى».

«إننى أؤمن بأن الموقف الحالى يدل على ضرورة الاستمرار بتصميم فى الجهود التى يقوم بها الأعضاء الدائمون فى مجلس الأمن بنيويورك من أجل وضع مشروعات مشتركة حول شروط تنفيذ قرار ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ (القرار رقم ٢٤٢)، وفى الحقيقة فإنه من الضرورى استئناف المهمة التى أناطها القرار بممثل السكرتير العام للأمم المتحدة فى المستقبل الوشيك».

١٠٠ طائرة ميغ لليبيا

وفى تلك اللحظة كان هناك داخل الإدارة الأمريكية من يرى أن التوازن العسكرى اختل بالفعل- ليس بسبب المدى الذى سيتطور إليه الدفاع الجوى المصرى.. وهو أمر لم يكن قد عرف بعد- ولكن بسبب صفقة عسكرية شديدة الأهمية أبرمتها فرنسا- وليس السوفيات. ففى نفس الشهر يناير هذا سنة ١٩٧٠ أعلنت فرنسا عن إبرام صفقة مع النظام الجديد فى ليبيا تتضمن توريد مائة طائرة «ميراج» إلى ليبيا على امتداد أربع سنوات، ولقد أدى هذا إلى إخراج الولايات المتحدة من الاتفاق على الحد من التسلح فى الشرق الأوسط. وكان معنى هذا الطلب أن يتوقف الاتحاد السوفياتى عن إمداد مصر أساسا بالأسلحة اللازمة لتحرير أراضيها المحتلة، ونتيجته هى استمرار إسرائيل فى هذا الاحتلال إلى ما لا نهاية.. طالما هى تتمتع بتفوق عسكرى- خصوصا بالنسبة للطيران، والآن فرنسا- وهى الدولة الحليفة- كى تسجل عفليا اعتراضها على سعى السياسة الأمريكية لإضعاف العرب لصلحة إسرائيل.

ومن ناحية أخرى، فإن نظام الحكم الجديد فى ليبيا أعلن من البداية ارتباطه بجمال عبد الناصر فى مصر، وفى ظل التأكد الأمريكى من إصرار عبد الناصر على الحل العسكرى.

فلا بد أن تجد تلك الطائرات الفرنسية المتطورة الجديدة إلى ليبيا.. طريقها في النهاية إلى الجبهة المصرية.

وحيثما تلقى الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون تلك الرسائل التحذيرية من رئيس الوزراء السوفيتى كوسيجن فى ٢١ يناير ١٩٧٠، فإنه اضطر خلال مؤتمر صحفى عقده فى نفس اليوم إلى الإعلان عن وجود خلاف بين واشنطن وباريس بسبب صفقة طائرات الميراج إلى ليبيا، مضيفاً قوله: «إننى أخشى من استخدام هذه الطائرات فى الحرب الدائرة فى الشرق الأوسط».

رسالة من نيكسون إلى كوسيجين

ويومها لم يناقش نيكسون مضمون رسالة كوسيجين لأنها لم تكن معلنة، لكن هنرى كيسنجر- مستشار نيكسون للأمن القومى- اعتبر على الفور أن تحذير كوسيجين «هو أول تهديد سوفيتى» للإدارة الأمريكية فى ظل رئاسة نيكسون، وهو الأمر الذى يتطلب «رداً حازماً». واتخذ هذا الرد «الحازم» طريقين.. فالطريق الأول هو تهديد مصر صراحة- من خلال الرسالة التى نقلها دونالد بيرجس فى ٢ فبراير- بالمزيد من الغارات الجوية الإسرائيلية.. وضد أهداف «قد تضر بالاقتصاد المصرى بصورة أساسية». والطريق الثانى من خلال الرد الذى بعث به نيكسون إلى كوسيجين فى الرابع من فبراير، ويتهم فيه مصر بأنها هى التى تعدت إشعال دائرة التصعيد العسكرى فى ١٩٦٩.. وإن الولايات المتحدة ترقب بعناية التوازن النسبى فى الشرق الأوسط، ولن تتردد فى تقديم الأسلحة إلى الدول الصديقة إذا ظهرت الحاجة إلى ذلك.

وحيثما لم تنخلع القلوب فى القاهرة من التهديد الأمريكى. ولا اهتزت شحنات السلاح السوفياتى إلى مصر نتيجة التحذير الأمريكى.. أصبح لابد من التفكير بمزيد من الهدوء داخل الإدارة الأمريكية.

لقد كتب هنرى كيسنجر مذكرة إلى الرئيس نيكسون يقترح فيها أن تعلن الولايات المتحدة إصرارها على وقف إطلاق النار بلا قيد أو شرط بين مصر وإسرائيل. و: «هكذا يكون الرد المضاد على التحرك السوفياتى هو إلقاء تبعه وقف إطلاق النار على عبد الناصر والعرب، ومن خلالهم تلقى التبعه على السوفيات أنفسهم، وليس علينا، ولا على الإسرائيليين».

وحيثما سمع السفير الأمريكى فى موسكو رد أندريه جروميكو وزير الخارجية فى ١١ فبراير أدرك على الفور أن السوفيات غير مهتمين بالمرّة بتلك الأفكار الأمريكية.. فالاتحاد

السوفياتى لا يستطيع أن يبحث وقف إطلاق النار، ولا حتى أن يفتح مصر بشأنه، ما لم تكف إسرائيل أولا عن الغارات ضد المدنيين فى العمق المصرى (ولم يتم جروميكو بإبلاغ السفير الأمريكى يومها بأن مصر أخطرتة بالفعل بأنها ترفض جملة وتفصيلا وقف إطلاق النار ما لم تعلن الولايات المتحدة.. رسميا وبالتحديد.. موقفها من الالتزام بالانسحاب من الإسرائيلى الكامل من الاراضى العربية المحتلة). أما بالنسبة لبحث الحد من صادرات الأسلحة فى الشرق الأوسط، فإن الاتحاد السوفياتى لا يعارض مناقشة المبدأ ولكن ليس فى ظل استمرار الاحتلال الإسرائيلى للاراضى العربية.

وبدأت تتراكم نذر أخرى بالمزيد من الخطر، إن التقارير ترد من المخابرات الأمريكية إلى كيسنجر بشأن زيارة سرية قام بها جمال عبد الناصر مؤخرا إلى موسكو (وهى التى كانت قد تمت فى ٢٢ يناير).. والى وجود دلائل مبكرة- وان لم تكن محددة- بوجود استعدادات سوفيتية لتصعيد مستويات الدعم العسكرى إلى مصر بشكل يختلف عن المستويات السابقة.

كيسنجر يستدعى رابين

وعلى الفور استدعى كيسنجر السفير السوفياتى فى واشنطن، دوبرينين، لكى يقول له باسم الرئيس نيكسون: «إننا نريد من الزعماء السوفيات أن يعرفوا أن إدخال جنود مقاتلين سوفيات إلى الشرق الأوسط- يقصد مصر- سوف ينظر إليه هنا بأخطر درجات القلق...». وقال كيسنجر أيضا: «إننا اخترنا هذا الأسلوب فى الاتصال لأننا لا نريد مواجهة رسمية، وفى نفس الوقت فإننا نرغب فى أن تجرى بيننا، عبر القنوات الخاصة، مناقشات ثنائية جديدة حول الشرق الأوسط.. لكن السوفيات ظلوا لنحو شهر بعدها لا يهتمون بمجرد الرد على تلك الرسالة الأمريكية.

ومع المزيد من تقارير المخابرات الأمريكية، كان كيسنجر يزداد غليانا، لقد تشكلت مجموعة عمل خاصة فى مجلس الأمن القومى الأمريكى لبحث الموقف على ضوء هذا التطور الجديد الذى لم تتضح كل أبعاده بعد، وهو ذهاب وحدات مقاتلة سوفيتية للدفاع الجوى إلى مصر.

وفى تلك الاجتماعات كان كيسنجر يلح على انه: «إذا ادخل السوفيات قوات عسكرية»، (إلى مصر) فلن يصبح أمامنا خيار سوى المقاومة، فليس فى وسعنا أن نقبل بوجود عسكرى

سوفيتي جديد، كما أننا غير مستعدين لرؤية المتطرفين العرب (يقصد عبد الناصر) وقد حصلوا، ربما، على دفعة حاسمة.

ويقرر كيسنجر صراحة أنه طلب في تلك الاجتماعات التخطيط لعمل رد انتقامي أمريكي ضد السوفيات، ولكن: «كانت جميع الوزارات في الولايات المتحدة أقل حماسا، فمعظم من هم في الحكومة ألقوا اللوم على التعنت الإسرائيلي باعتباره سبب تجميد الموقف، إن الجميع - باستثنائي أنا- كانوا مقتنعين بأن قيامنا بإعطاء معونة (عسكرية) ضخمة جديدة إلى إسرائيل يمكن في هذه الظروف أن ينسف المنطقه ويحولها إلى شظايا، أما عن خطط الطوارئ، فإن أحدا لم يستطع أن يفكر في عذر مقبول لمقاومة الجهد الذى يستهدف الإعداد للمستقبل، ولكن.. كان من الواضح أن القيام بأى عمل عسكري مضاد لتحرك سوفيتي كبير سوف يصطدم بمقاومة بيروقراطية مكثفة».

ويضيف كيسنجر في الجزء الأول من مذكراته بعنوان «سنوات البيت الأبيض» قوله: «إن وزارة الدفاع الأمريكية قدمت مذكرة رسمية تؤكد فيها على أنها تفضل اللجوء إلى اختيارات سياسية، مما يعنى - كما هو الحال فى فيتنام- أن وزارة ما أخرى يجب أن تتحمل العبء والمخاطرة، ولم تفسر المذكرة الكيفية التى ستحقق بها انسحابا إسرائيليا كاملا- وهو الاختيار السياسى الوحيد المطروح على المائدة- أو الكيفية التى لن يبدو فيها هذا الانسحاب نتيجة لضغط سوفيتي فى حالة ظهور أفراد مقاتلين سوفيات فى المنطقة». فى رد نيكسون على إحدى مذكرات كيسنجر، سجل الرئيس الأمريكى التأشير التالية: «على رغم أن السياسة المتوازنة هى الصواب، إلا أن مصلحتنا فوق كل شىء، وتكمن فيما يثير للسوفيات أشد المتاعب، لا تدعو النزاع العربى الإسرائيلى يحجب هذه المصلحة».

خلافات بين نيكسون وكيسنجر

لكن الذى كان يجعل كيسنجر يغلى من الغيظ تماما، هو أن اقتناع الرئيس نيكسون بوجهة نظر خبراء وزارة الخارجية - راييس وجهة نظره هو- بشأن تفسير تزايد النفوذ السوفياتى فى الشرق الأوسط، وخصوصا منذ تصاعد حرب الاستنزاف المصرية فى مارس سنة ١٩٦٩، إن كيسنجر كان يلح على فكرة أن مضاعفة المساعدات العسكرية الأمريكية لإسرائيل هو الذى يحبط مصر، وبالتالي يرغبها على تقليل اعتمادها على الأسلحة السوفيتية، مما يؤدى إلى فى النهاية إلى تراجع النفوذ السوفياتى فى الشرق الأوسط.

وردا على مذكرة قدمها كيسنجر وكرر فيها مزاعمه تلك، كتب الرئيس نيكسون في تأشيرته: «إننى اختلف تماما مع هذا الاستنتاج.. لقد كنا نتباهى بـ «هزائم» السوفيات فى الشرق الأوسط منذ عام ١٩٦٧، وقالت وزارة الخارجية أن حرب (١٩٦٧) كانت هزيمة للسوفيات، إنها لم تكن كذلك، فقد أصبحوا أصدقاء للعرب، والولايات المتحدة عدوهم، واستمرار هذه الحالة على المدى الطويل يخدم مصلحتهم».

وفى اللحظة الراهنة كان كيسنجر يعتمد على إسرائيل، بأكثر مما هو يعتمد على إقناع رئيسه، فى إثبات إمكانية خضوع مصر لسياسة «العصا الغليظة» حتى تدعن لقبول وقف إطلاق النار بلا قيد أو شرط، خصوصا وأن إسرائيل لها اليد العليا فى السيطرة الجوية، وامتدادا لكيسنجر، استمر إسحاق رابين السفير الإسرائيلى يهنئ نفسه وحكومته، قائلا فى برقية سرية بعث بها إلى جولدا مائير: «لقد انجزنا تحسنا ملحوظا فى موقف الولايات المتحدة، إن استمرار هذا التحسن يعتمد أولا وقبل كل شىء على استمرارنا فى شن غاراتنا الجوية فى قلب مصر».

تصعيد الغارات ضد المدنيين

وهكذا، بمجرد أن بدأت تقارير المخابرات الإسرائيلية عن دلالات شحنات السلاح الجديدة إلى مصر، بدأت إسرائيل تتصاعد بغاراتها ضد المدنيين فى العمق المصرى، لتتخذ طابعا هستيريا ومحموما، وفى سباق إسرائيل مع الوقت لمنع الصواريخ الجديدة من اتخاذ مواقعها طبقا للخطة المصرية، زادت من توحشها ضد المدنيين داخل مصر، ففى ١٢ فبراير (١٩٧٠) استخدمت إسرائيل طائرات الفانتوم فى الإغارة على مصنع مدنى فى أبو زعبل على مشارف القاهرة، توقيت الغارة محسوب، فى المصنع وريديات تتناوب العمل، كل وريديّة من ألقى عامل يأتون وينصرفون فى مواعيد محددة بقطار محدد، والطائرات الإسرائيلية تستهدف إلقاء حمولة المتفجرات على العمال فى الدقائق التى تجمع بين انصراف وريديّة و قدوم وريديّة أخرى، هذا كان يعنى أن الهدف هو أربعة آلاف عامل.. مدنى.. أقصى أنواع الإرهاب.. ضد المدنيين لكن أسفرت الغارة البشعة عن مصرع سبعين عاملا وإصابة ٦٩ بجراح، ثم خرج موسى ديهان وزير الدفاع الإسرائيلى ليقول إن هدفه من هذه الغارات الإسرائيلية بعيدا عن جبهة المواجهة الفعلية فى قناة السويس هو: «أن يحافظ على معنويات الشعب الإسرائيلى وتفويض الزعامة السياسية والعسكرية فى مصر»..

وازاء الاستنكار الدولي لتلك الجريمة البشعة وغير المسبوقة اضطرت إسرائيل إلى الزعم بأن الغارات وقعت بطريق الخطأ!

وفي ٨ ابريل أغارت إسرائيل على مدرسة فى قرية بحر البقر بالصالحية، فراح ضحيتها ٣١ قتيلا و٢٦ جريحا من أطفال المدرسة، ومرة أخرى واجهت إسرائيل الإدانة العالمية ضدها بإنكار وقوع الغارة من أساسها، ثم اضطرت إلى التراجع عن إنكارها حينما انتقل المراسلون الأجانب فى مصر إلى مكان الغارة وسجلوا آثارها.

وبالتدريج، مع استكمال نطاق الصواريخ الأول الذى يحمى العمق المصرى، واكتشاف إسرائيل لهذا التطور بدأت قلوب القيادات العسكرية هى التى تتخلع نتيجة لأن قدراتها على التوحش ضد المدنيين فى مصر بدأت تتراجع شيئا فشيئا، والسفير الإسرائيلى إسحاق رابين منتفخ الأوداج بدأ يتراجع، مسجلا: «إننا مع نهاية شهر مارس ١٩٧٠ أصبحنا مضطرين إلى وقف غارتنا فى العمق (المصرى) لأن بطاريات صواريخ سام-٣ تم وضعها حول مدن مصر الرئيسية»، هكذا تم إذن قطع الذراع الطويلة لإسرائيل ضد المدنيين المصريين بشكل تدريجى، ولكن إسرائيل سوف تستمر لبعض الوقت فى محاولاتها؛ إلى أن تجد تفسيراً ملائماً تروجه لحقيقة اضطرابها أخيراً إلى وقف التوحش ضد المدنيين المصريين بعد أن حولت طائرات الفانتوم لديها إلى «مدفعية طائرة» على حد تعبير جولدا مائير لكى تسقط قذائفها على «عقبات المصريين» فى بيوتهم.

ما يعادل قنبلة ذرية

أما بالنسبة للأهداف العسكرية المصرية غرب القناة فقد تزايدت -عددا وكثافة- بشكل جنونى، بعد أن أصبحت ترى بمعدل أربع غارات يوميا بطائرات الفانتوم وسكاي هوك حيث تقذف «أكثر من عشرة آلاف طن متفجرات يوميا، وخلال يومى ١٤ و١٥ ابريل وصل قذف العدو إلى معدل تأثير قنبلة ذرية زنة عشرين ألف طن على المنطقة، التى شملت بالذات منطقة رقبة ألوزة أيضا التى نجحت فيها قوات الجيش الثانى وكتائب الصاعقة فى تدمير قوات العدو والحصول على أسرى أحياء فى ذلك الوقت، واستمر العدو فى غاراته المركزة ضد مواقع الصواريخ مستخدما أكفا طياريه وطائراته الحديثة طراز سكاي هوك والفانتوم فى سباق مع الزمن ضد صواريخ سام-٢٣ مم الرباعى الموجه والدفاع ٢٣ مم الرباعى الموجه وصواريخ سام-٧، والإرادة وقوة العزيمة من المصريين القائمين على استكمال مواقع الصواريخ حتى نهاية يوليو ١٩٧٠».

وكانت كل شبكات التجسس الإسرائيلية والأمريكية فى تلك الفترة معبأة بالكامل لرصد أى معلومات عن مواقع الصواريخ المصرية الجديدة أولا بأول، وفيما بعد صور فيلم مصرى بعنوان «الصعود إلى الهاوية»، وهو قصة شبكة واحدة من التجسس أدت معلوماتها إلى استشهاد مئات من المصريين فى مواقع الصواريخ الجديدة، كما سقطت شبكة أخرى من الجواسيس تسربت إليها خريطة أحد مواقع الصواريخ بواسطة قريب مقاول مشهور جرى احتجازه فى حينها لبعض الوقت.

رجال اليوم السابع

فى الواقع لم تكن عملية إعادة بناء القوات المسلحة المصرية تركز على جانب الأسلحة والمعدات فقط، إنما كان هناك ما أسميه فى قاموسى الخاص «جيش اليوم السابع» جيش قامت مصر ببنائه مقاتلا ومقاتلا وطوبه وطوبه، وسلاحا بعد سلاح.

وكل مقاتل فى هذا الجيش، من أكبر ضابط إلى أصغر جندى، ظل سنة بعد سنة يرى زملاءه المقاتلين أضعاف أضعاف ما يراه من أسرته، ويأكل معهم فى الخنادق طعاما لا يعرف مطلقا إذا كان سيعيش بعده حتى الوجبة التالية أم لا.

رجال ومقاتلون عرفوا وبشمن فادح وبغير فذلكة ولا بغبغة أن مصير الوطن.. بل والعروبة.. كلها يتوقف تماما على مدى إيمانهم وإصرارهم، هناك جولة خسرناها بطريقة مفاجئة سماها العدو دعائيا «حرب الأيام الستة» الآن هو اليوم السابع، وهؤلاء مقاتلوه، إن كل الأيام تساوى ٢٤ ساعة، لكن فى حياة الشعوب تصبح بعض الأيام أطول أو أقصر من الأيام الأخرى، والفترة من اليوم التالى للمهزيمة المدوية فى يونيو ١٩٦٧ حتى اليوم الأخير لتحرير الأرض هى بذاتها يوم واحد متصل، إنه اليوم السابع، وكان الجيل الذى انتمى إليه هو ذاته العمود الفقري لتلك الحرب، جيل من المتعلمين وخريجي الجامعات الذين أصبح الجيش بكل فروعهم يطلبهم بشكل فوري، ولحسن حظ العروبة فإن هذا الجيل كان أول إنتاج متراكم لنهضة كبرى بدأت قبلها بسنوات، نهضة عنوانها: مجانية التعليم.

وإذا كانت دفعتى فى الدراسة مجرد نموذج هنا، فإن سبعين فى المائة منها على الأقل استمروا مجندين، جنودا وضباطا، فى يوم واحد متصل ما بين يونيو ١٩٦٧ وأكتوبر ١٩٧٣، ولولا أنه كان هناك إصرار على أن تفضى الحياة المصرية، زراعة وصناعة واقتصاد ومرافق، كالمعتاد، فربما كان سيتم تجنيد مائه فى المائة من خريجي الجامعات، لكن الجيوش الحديثة لا تصبح حديثة من فراغ، إنها تعتمد على - وتعيش من - اقتصاد حديث أيضا.

وإذا كان سبعون في المائة من دفعتي الجامعة أصبحوا مجندين في هذا «اليوم السابع» فإن الثلاثين بالمائة الأخرى كانوا مجندين بشكل مختلف، الأولون يرتدون الكاكي والآخرون بملابسهم المدنية لكن هذا الخريج الجامعي بالملابس المدنية كان يدير حياته في حدود مرتبه المتواضع، والمرتب متواضع ليس لأن جهده متواضع ولكن لأنه يتقبل حقيقة أن عليه أن يعيش فقط على الضروريات، لأن زميله في جبهة القتال يشارك في تحقيق المستحيل.

والمستحيل كان هو أن يصبح لمصر جيش عصرى، والاستحالة هنا طبيعية لأن مصر تتاح لها فقط ربع ساعة حرية في كل قرن وإذا لم تستثمر مصر ربع الساعة هذه بسرعة في بناء جيش حديث تواجه به أطماع الوحوش الكاسرة في الغابة الدولية يصبح مصير مصر هو الاضمحلال، هكذا التاريخ المصرى في حالته الدرامية، فمصر إما في القمة وإما في الحضيض ولا وسط.

عقل كبير فى قضية أكبر

مرة أخرى نحن فى الإعداد الجيد للحرب التى قررت مصر أن تخوضها لاستعادة الأرض المحتلة وبدأت فى إعداد الجيش القادر على استعادة الأرض، ومن بين القرارات التى اتخذت فى ذلك الوقت قرار كان ملفتا فى وقتها، لقد قرر جمال عبد الناصر أن يصبح للدفاع الجوى المصرى قيادة مستقلة فى القوات المسلحة واختار محمد على فهمى مسئولا أول عن تلك القيادة والصورة الوحيدة المنشورة له وقتها هى صورته وهو يقابل جمال عبد الناصر والى جواره الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية.

تسلم إذن محمد على فهمى المسئولية وكانت هناك نكسة كبرى سجلت فيها إسرائيل انتصارا مدويا، والقضية التى أجمعت عليها مصر كلها هى ببساطة أن «ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة» والقوة ليست سلعة متاحة فى محلات البقالة ودواء متوفرا فى الصيدليات، القوة هى نحن، هى ما نصنعه، هى ما نختطفه وسط غابة دولية لسنا أقوى وحوشها، وإسرائيل بعد انتصار مدو أصبحت تستبيح سماء مصر بطائراتها الأمريكية، والغابة الدولية لا تتيح سلاحا سلاح، والمتوحشون فى الغابة الدولية يقامرون على الوقت.. على الزمن.. فبالزيد من الوقت والغارات الجوية المتوحشة على المدنيين من أطفال فى مدارسهم وعمال مدنيين فى مصانعهم.. لا بد أن تستسلم مصر.

ولأن الاستسلام يبدأ من الروح فقد جرى تكليف العميد- وقتها محمد على فهمى بإنشاء سلاح جديد اسمه «الدفاع الجوى».. لكى يتكامل مع أسلحة المشاة والبحرية والطيران.. لم تكن المسألة هنا هي فقط أن تمتلك مصر قوة عسكرية رابعة ضمن قواتها المسلحة. كانت المسألة أساسا هي قطع اليد الإسرائيلية الطويلة.. يد الطائرات التي تستأسد يوميا ضد المدنيين فى مدن مصر وقراها.. بمن فيهم أطفال مدارس لم تستوعب عقولهم البريئة- بعد- أى شىء عن العدوان والتوحش الإسرائيلى. وأصبحت مشكلة محمد على فهمى هنا مشكلتين.. فهو القائد فى عملية كبرى صامته لإعادة بناء دفاع جوى حديث لمصر لن يعرف العالم بها إلا حينما تدخل- فيما بعد- فى مرحلة بناء حائط الصواريخ.. وهو أيضا يفعل ذلك فى ظل غارات جوية إسرائيلية يومية وعلى مدار الساعة.

ويوما بعد يوم.. وليلة بعد ليلة.. وشهداء بعد شهداء.. بدأ الشعب المصرى يستوعب لأول مرة ماذا يعنى بالضبط «دفاع جوى». الألفاظ واضحة، دفاع جوى، لكن بحلول الأسبوع الأخير من شهر يوليو ١٩٧٠ بدأت إسرائيل تدرك أن تطورا خطيرا قد حدث، تطور سيغير مسار الحرب الدائرة بل فى المنطقة كلها خلال ذلك اليوم السابع.. الطويل. فى حرب «الاستنزاف» لم تكن لدى مصر- خصوصا المقاتلين فى القوات المسلحة- أية أوها، هناك غابة دولية ونحن لسنا أقوى وحوشها، والوحوش الأكبر لكل منها حساباتها ومصالحها، من تلك المصالح مثلا أن تكفل الولايات المتحدة لإسرائيل، المعتصبة والمعتدية، تفوقا كاسحا فى الأسلحة على الدول العربية مجتمعة، وخصوصا فى الطيران، وإسرائيل بطائرات الفانتوم الأمريكية تقوم باختراق المجال الجوى المصرى فى العمق لكى تروع شعبها وتفقدهم أى أمل فى قوتهم المسلحة الجديدة، فى المقابل تملك مصر طائرات «الميج» السوفيتية الصنع، طائرات جيدة ولازمة وبنيت حلال وتوجع العدو أيضا لكنها فى نهاية المطاف لا تتيح للطيار المصرى نفس الإمكانيات المتاحة أمريكيا لدى الطيار الإسرائيلى.. والاسوأ من ذلك.. ليس مسموحا فى الغابة الدولية أن نحصل على أية طائرات من أى مكان آخر.

فى مثل هذا الموقف هناك حلان لا ثالث لهما: نقفل الملف.. أو تفتح الملف.. فى حالة قفل الملف تصبح الخلاصة هي أن إسرائيل مستمرة فى الاحتلال ومصر فى «الطراوة»، بل.. ولاحتى فى «الطراوة» مصر عليها فقط، وبعدها كل العرب.. الانتظار إلى جوار التليفون حتى يملى عليها وزير الدفاع الإسرائيلى المطلوب منها ثمنا للهزيمة، فى حاله فتح الملف تصبح الخلاصة هي: نضرب.. وننضرب.. ننقع.. فنقوم من جديد، يضربون لنا أطفالا

صغارا في بحر البقر فنضرب لهم طيارين بطائراتهم، هنا يصبح للدفاع الجوي بقيادته الجديدة المستقلة حديثا محل من الأعراب، ما يزال على الورق اسمه دفاع جوى، لكنه فى حروب «اليوم السابع» المصرية أصبح دفاعا جويا فى مهمة أولى فعلية أن تقطع ذراع إسرائيل الطولى المستأسدة ضد الأطفال المصريين فى بحر البقر والعمال فى مصنع أبو زعبل وغيرها، لكن تلك فقط كانت مقدمة للمهمة الأكبر: حماية القوات العابرة لتحرير سيناء. بكلمات أخرى، أصبحت إسرائيل- طوال حرب «الاستنزاف»- تريد أن تقول للعسكرية المصرية، لكل حل.. مشكلة، بينما العسكريون المصريون عليهم أن يثبتوا انه: لكل مشكلة.. حل.

بكلمات أخرى وأخرى.. هناك امتحان كبير وفاصل للإرادة والعسكرية المصرية وكانت النتيجة أن استطاعت هذه الإرادة أن تفجر جوهر الإنسان المصرى وتعلم العالم دروسا جديدة فى العسكرية، فى هذه المرة محور الدروس الجديدة هو: كيف تستطيع الصواريخ ارض/ جو والأسلحة المضادة للدبابات القيام بإذلال وقهر أحدث الطائرات والمدركات المتاحة لإسرائيل.

عدت مرة أخرى إلى المجلد الذى صدر فى الغرب بعنوان «التاريخ العسكرى للعالم» الذى كنت قد تصفحته بسرعة ثم توقفت مرة أخرى عند أحد فصوله بعنوان «الحروب العربية الإسرائيلية» الكتابة متحاملة ومنحازة ومن منظور موجه أساسا إلى القارئ الغربى، وتأكدت من أسماء مؤلفيه من الخبراء العسكريين. تأكدت مرة أخرى من البيانات، هذه ليست رواية، ليست إبداعا من خيالات مؤلف، إن «إذلال» و«قهر» هنا تعبيران محددان تماما ومقصودان حرفيا ومن خبراء عسكريين غربيين وبعد سنوات طويلة من- حرب الاستنزاف- هنا تصبح الترجمة من الإنجليزية إلى العربية هى: محمد على فهمى.

وعندما نجحت مصر بالوصول بحائظها الصاروخى إلى أقرب نقطة من قناة السويس، وفى أسبوع واحد- سعى عالميا: أسبوع تساقط الطائرات- أسقطت الصواريخ المصرية ١٧ طائرة إسرائيلية من طراز فانتوم وسكاي هوك، ووضعت مصر أيديها على تسعة طيارين إسرائيليين أحياء، ووقف أبا أيان وزير خارجية إسرائيل يتكلم بمرارة فى الكنيست الإسرائيلى قائلا: «الموقف خطير خطير، لقد بدأ سلاح الطيران الإسرائيلى يتآكل».

هنا يصبح ما قاله أبا أيان وما عبر من خلاله عن مخاوفه من تآكل فى سلاح الطيران كان له عنوان واحد بين رجال القوات المسلحة المصرية: محمد على فهمى.. والإرادة

المصرية، وأن تغيرا فعليا في مسار- حرب الاستنزاف- قد بدأ وأن نقطة تحول كبرى في مسار الحرب قد حدثت، وعرف المصريون لأول مرة معنى وطعم أن يكون لديهم دفاع جوى، وإن التضحيات التي حدثت، والشهداء الذين قدموا أرواحهم من أجل استكمال بناء هذا الحائط لحماية العمق المصرى والمدنيين والأطفال من غطرسة ووحشية العدو لم تذهب سدى.

أما بالنسبة لمحمد على فهمى نفسه فقاموسه الخاص ليس فيه بالمرّة كلمة «أنا» فيه فقط «نحن» يتكلم عن: جنودنا المهندسين جيشا وطيرانا.. مدفيعتنا.. شهدائنا.. صواريخنا.. و.. و.. كلها تنويغات وتنويغات للعنوان الرئيسى «نحن» الذى هو ببساطة «مصر».

